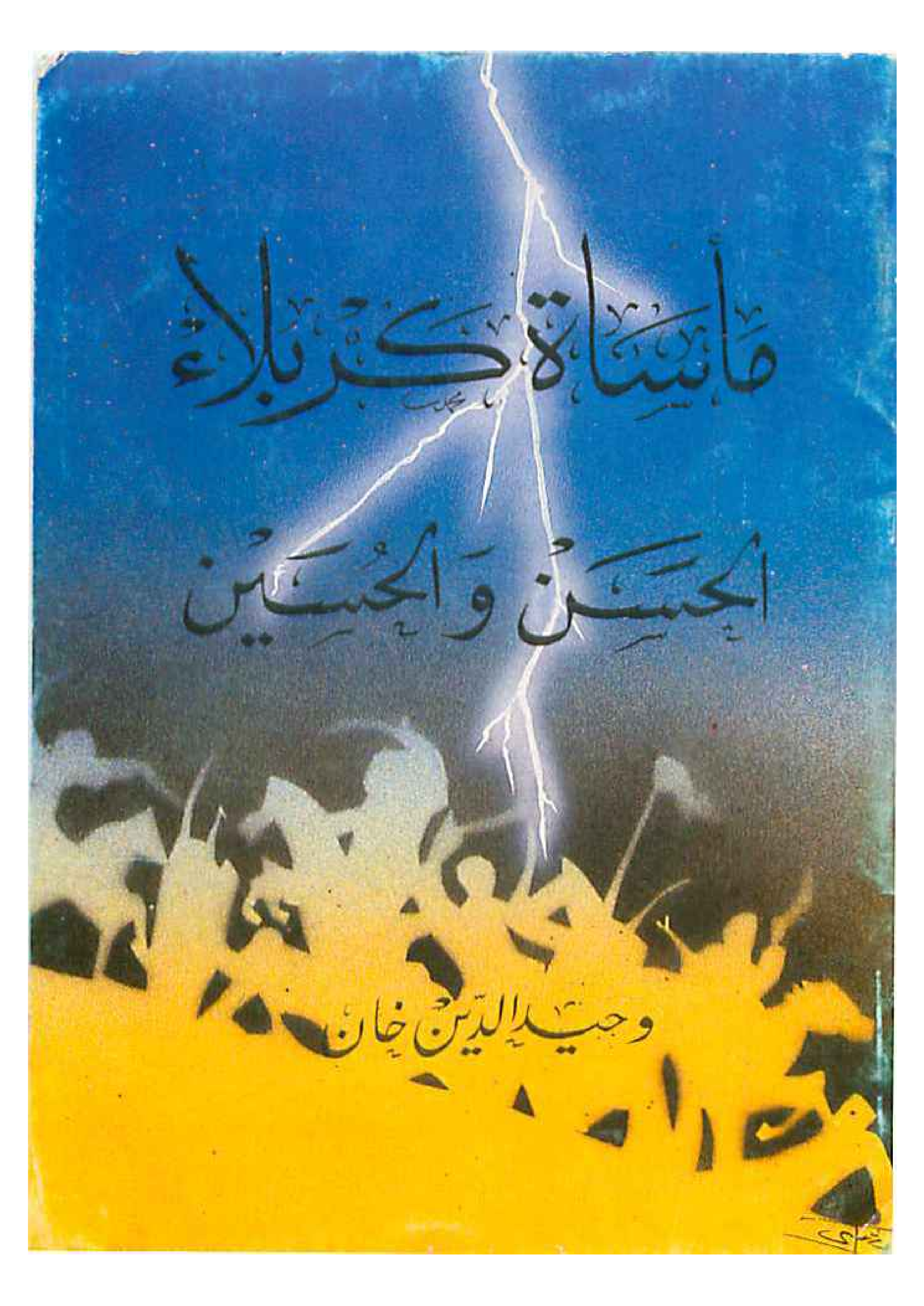


مأساة كربلاء
الحسن والحسين
وحيد الدين خان

وحيد الدين خان

الحسن والحسين

(دراسة حول مأساة كربلاء)

مراجعة وتقديم د. على عبد المنعم

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلا الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ ﴾

فصلت : آية ٣٣ : ٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع الصراع بين العلويين والأمويين موضوع شائك فى الفكر الإسلامى، ما كاد يقترب منه باحث إلا وتناثرت شظاياه، تلسع أصبعه، وتوشك أن تحرق يده! سواء كانت هذه الشظايا المتناثرة من أنصار العلويين أومن سواهم !

ولكن الأستاذ (وحيد الدين خان) فى هذه الرسالة لا يقترب من الموضوع برمته دفعه واحدة، وإنما ينتزع جزئية من جزئياته، ويجعلها قائمة بذاتها ماثله شاخصة للعيون، ثم يفردها بالبحث والحديث. هذه الجزئية هى (مأساة كربلاء) ، وماذا كان موقف الحسين - رضى اللّٰه عنه - فيها، ناظرا إلى هذا الموقف من منظور إسلامى وتاريخى فى الوقت نفسه، موازنا بينه وبين موقف الحسن - رضى اللّٰه عنه - حين وُضع هذا الموضع من قبل فاختار، وكان اختياره مغايرا كل المغايرة لموقف أخيه الحسين - رضى اللّٰه عنه - من بعده. وماذا كان أثر كلّ من الموقفين على الإسلام

والمسلمين حتى يومنا الحاضر، وكيف نسى المسلمون أو تناسوا قف الحسن، وظلوا على ذكر دائم لموقف الحسين - رضى اللّه نهما .

وقد اجتهد الأستاذ (وحيد) فى أن يعرض كلا الموقفين عرضا منصفا، ويتخذ منهما موقفا محايدا، يسوق لكل منهما مبرراته وحججه، ويكشف عن الظروف والملابسات التى أحاطت به، ثم يخلّى بين ذلك كله وبين القارىء ، يمعن النظر فيهما، ويجيل الفكر فى ثناياهما، ثم يكوّن لنفسه رأيا مستقلا .. لا يريده الباحث رأيا عقليا باردا؛ وإنما يريده رأيا متوهجا، فيه وقدة الحماس للعمل، العمل على نبذ الخلافات المذهبية، والتخلص من العصبية الضيقة ،، هذه العصبية التى فرقت المسلمين شيعا وطوائف، يلعن بعضها بعضا، ويكفّر بعضها بعضا، فاستنفذت طاقتهم وبددت جهدهم، وأوهنت قواهم، وتوشك أن تودى بهم! حتى الذين سعّروا نارها تفرقوا بين مؤيد لموقف الحسن، لا يرى الخروج على الحاكم حتى ولو كان قد أخذ الحكم غلبة وعنوة،

وبين رافض لهذا الاتجاه ، مؤيد لموقف الحسين ، يرى الخروج على الحاكم الذى أخذ الحكم غلبة وعنوة - وكل الحكام فى رأيهم كذلك - مهما كان فى ذلك من فتنة لا تصيب الخارجين وحدهم ؛ وإنما تصيب المجتمع كله بالخراب والدمار !

إن الأستاذ (وحيد) يؤصل بهذه الرسالة الموجزة الدقيقة فكرة، ويزيح غبار النسيان أو التناسى عن موقف .. وأكبر الظن أنه سيقيم على هذه الفكرة صرحا شامخا، فيه كثير من الضياء ، فيما نستقبل من كتاباته .

نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد.

إنه نعم المولى ونعم النصير ،

مدينة نصر:

ذو القعدة ١٤١١ هـ
مايو ١٩٩١ م

د . على عبد المنعم عبد الحميد

تمهيد

إنّ الحسن والحسين رمزان لاتجاهين متناقضين فى التاريخ الإسلامى . فالحسين كان ذا اتجاه سياسىّ أمّا الحسن فكان ذا اتجاه غير سياسىّ، والذى كان يرمى إليه الحسين من تصادمه السياسى مع الخليفة المنتخب قد حصل عليه الحسن عن طريق التراجع عن ساحة التناحر، ومع ذلك فإن أعمال الحسين قد إشتهرت ويعرفها الجميع بينما ما فعله الحسن ـ رغم قيمته ـ لايعلمه إلا القليل، والقليل النادر هم الذين يدركون أهمية هذا العمل الجاد الثقيل.

لقد أثر الحسين (٤ ـ ٦١ هـ) فى التاريخ الإسلامى وأصبح نجماً لامعاً فيه، حتى أن مسلمى اليوم يحيون ذكر العاشر من محرم، ويولونها اهتماماً بالغاً، وذكراها عندهم تفوق كل

الذكريات [1] ، حتى أن ذكرى المولد النبوى لايحظى بمثل هذا الإهتمام نظراً للاعتقاد السائد من أن روح الإسلام تكمن فى عدم الخضوع للباطل، ولو أدى ذلك الى قتال فتاك يتطلب بذل الروح فهذا ما يعرف بـ«الإستشهاد » عند الناس، وهو ما تبلوَر بشكل فريد لم يسبق له مثيل فى حياة الحسين حيث كان معه. طبقا ـ للروايات التاريخية ـ اثنان وسبعون نفراً فقط، ويقابله ستة آلاف من الجيش المسلح المزود بجميع وسائل القتال، وهو لم يقبل الخضوع لحاكم بل قاومه وواجهه حتى ضحى بروحه.

أعطى الرأس ولم يعط اليد لزيد

(شعر فارسى)

والذى يثير الإعجاب أن هذه الحادثة التى بلغت هذه الشهرة غير مطابقة لتعاليم الإسلام من ناحية، ولاتنطبق مع حوادث التاريخ نفسها من ناحية أخرى، فالإسلام والتاريخ يرفضان قبول مثل هذا النموذج.

---

(١) الاحتفال بذكرى ١٠ محرم من عادة مسلمي الهند وباكستان (إحياء لذكرى كربلاء) يوم استشهاد الحسين

وحى الحوادث التاريخية :

لننظر ماهى الصورة الحقيقية لهذه الواقعة طبقاً للتاريخ :
كان فى مكة فرعان متمايزان لقبيلة قريش (بنو عبد مناف) فرع بنى هاشم، وفرع بنى أمية، وكلاهما يتمتعان بنفوذ قبلى منذ القدم ولماً بعث النبى ﷺ فى قبيلة بنى هاشم ، لم يناصبه العداء من بين أفرادها سوى عبد العزى، بينما قبيلة بنى أمية الطرف المعادى للنبى ﷺ لم ينجحوا فى عدوانهم إلى أن أسلموا بعيد فتح مكة (٨ هـ) كغيرهم من القبائل العربية، وفى عهد النبى ﷺ ، وعهد الخلفاء الراشدين من بعده شغل أولو الكفاءة منهم المناصب المختلفة، وفى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وكان أموياً ـ عمل الأمويون على تريسخ نفوذهم، وعندما انتخب على بن أبى طالب كأول خليفة هاشمى ، ثارة ثائرتهم مطالبين بدم عثمان، رافضين مبايعة الخليفة الرابع على بن أبى طالب، فأشعلوا نار الحرب الأهلية التى لم تنطفىء طوال مدة خلافته (٣٥ ـ ٤٠) حتى استشهد على يد مسلم شبه مجنون.

ثم أخذ الحسن بن على - إبنه - بزمام الخلافة من بعده، وتمت مبايعته أيضاً، وكانت العراق وخراسان (إيران) آنذاك خاضعة لسيطرته، بينما اليمن والحجاز والشام وفلسطين ومصر وغيرها كانت تحت نفوذ معاوية بن أبى سفيان الذى أنكر خلافة الحسن كما سبق أن رفض مبايعة على .

وبلغ الوضع فى شهر ربيع الأول (٤١ هـ) حداً جعل الحسن يتأهب للقتال صحبة أربعة آلاف مقاتل مسلم قد سبق أن بايعوه على الموت وفى المقابل اجتمع ستة آلاف مقاتل تحت راية معاوية قاطعين العهد على الموت.

وفكر الحسن فى الأمر فرأى أنه لو ظل مصراً على الخلافة لاستمر المسلمون فى سقوطهم قتلى بسيوف إخوانهم من المسلمين حتى بعد انقضاء خلافة أبيه، والتى كانت مدتها خمس سنوات، ولن يجنى المسلمون، والحالة هذه سوى الحرب وسقوط مزيد من القتلى إلى أمد لا علم لنهايته. ورغم أن الحسن كان أحق بالخلافة إلا أنه أحس بأن الطرف الثانى كان غير مستعد للتراجع أبداً،

فتراجع بنفسه عن ساحة القتال متنازلاً عن الخلافة لمعاوية وظل الوضع هادئاً وهانئاً لمدة عشرين عاماً (٤١ ـ ٦٠ هـ) اتجهت خلالها القوات الإسلامية الى توسيع رقعة الإسلام بدلاً من الحروب الأهلية. وبعد وفاة معاوية فى شهر رجب (سنة ٦٠ هـ) برزت للمرة الثانية قضية الخلافة فالحسين الذى لم يرض عن خطة أخيه فى التخلى عن الخلافة، رفض الإعتراف بخلافة يزيد بن معاوية كما أنكر أبوه على بن أبى طالب ـ من قبله الإعتراف ـ بخلافة معاوية. ومن هنا انطلقت ذكرى (١٠ محرم) التى يحى المسلمون ذكراها سنوياً.

والتاريخ يشهد بأن يزيد بن معاوية قد أرسل ـ فور استيلائه على السلطة ـ إلى والى المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان ليأخذ له البيعة من الناس، فجمع الوليد سكان المدينة لهذا الأمر، وقد اعتذر الحسين عن عدم قبوله لبيعة يزيد واتجه فى اليوم التالى هو وأسرته نحو مكة صامتاً، علماً بأن مكة لم تكن مؤيدة له أيضاً، لأنهم قد بايعوا عبد الله بن الزبير، وهذا الوضع كان صعباً وثقيلاً على

الحسين وأسرته لدرجة أنهم كانوا لايصلون خلف عبد الله بن الزبير وهو حاكم مكة آنذاك. إن قضية مقتل عثمان جعلت بيئة مكةغير مواتية للخليفة الرابع على بن أبى طالب، فاتجه الى الكوفة (العراق) وأقام فيها بعد أن ترك المدينة، مما تسبب فى نقل العاصمة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة (٣٥هـ). أما الحسن فقد عاد إلى المدينة وطنه السابق تاركاً الكوفة بعد تنازله عن الخلافه، وأما الحسين فقد عبّر الشاعر العربى الفرزدق عن شعور أهل الكوفة إزاءه : فقد سأله الحسين : بين لى خبر الناس خلفك، قال « الخبير سألت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء »

وبعد أن تقلد يزيد منصب الخلافة، بدأ حب أهل البيت يطفو على سطح قلوب أهل الكوفة، فراحوا يراسلون الحسين يدعونه إلى الكوفة على أن يبايعوه، حتى بلغ عدد الرسائل التى وصلت إلى مكة قادمة من الكوفة نحو مائة وخمسين رسالة كلها تحمل نفس المضمون، أما الحسن فقد أدرك خطورة الموقف بكل أبعاده، وكتب

فى وصيته لأخيه الصغير محذراً إياه لئلا يقع فى شبكة خداع الكوفيين، قائلا : قد ثبت يقينى على أن النبوة والخلافة لا يمكن أن تجتمعا فى قبيلتنا والأفضل أن تلتزم الصمت فيما يتعلق بهذا الشأن. لكن طبيعة الحسين جعلته لا يرحب بمثل هذا الاقتراح، وبدأ يعد العدة للذهاب إلى الكوفة بعد أن استقر رأيه على ذلك، ودعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ـ كتمهيد لتنفيذ خطته ـ وقال له : «اذهب الى الكوفة وخذ البيعة لى خفية، وسألحق بك عاجلا» ولم يوافق مسلم بن عقيل على خطة الحسين، لكن الحسين ألح عليه واجتهد فى إقناعه حتى تراجع عن رأيه واتجه الى الكوفة، وعندما وصل مسلم بن عقيل الى الكوفة كمندوب عن الحسين لقى ترحيباً من الكثيرين، حتى قيل إن مايقرب من ثمانية عشر ألف شخص قد بايع مسلماً نيابة عن الحسين.

وحين علم يزيد بن معاوية بما جرى فى الكوفة سيّر عبيد الله بن زياد لتحطيم رؤوس أهل الكوفة، فتحرك عبيد الله من البصرة متوجهاً إلى الكوفة، وعند وصوله إلى الكوفة وجه إلى الناس كلمة

هددهم فيها وحذرهم تحذيراً قاسياً ثم صعد بمسلم ومضيفه الكوفي هانيء بن عروة إلى سطح المنزل وأوقفهما هناك وقتلهما وأسقط رأسيهما - على مرأى من الناس - مخضلين بالدماء. وهذا يرمز إلى أنّ مجرد الإقدام على تأييد الحسين يتطلب التفكير بروية في عاقبته، أما الحسين فكان على استعداد تام في مكة، وهو يجهل كل ما يجرى في الكوفة وقد منعه عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس، وعمرو بن سعد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث وآخرون من كبار مكة، عن تنفيذ خطته وكان مما قال له عبد الله بن الزبير : لو أردت حكومة مكة بدلا من التوجه الى الكوفة فإنى سأكون أول من يبايعك. فلم يتراجع الحسين رغم هذا كله. وقد ألح عليه كذلك عبد الله بن جعفر بن أبى طالب في عدم الذهاب إلى الكوفة فلم يحفل به كما أنه رفض قبول ما قاله عبد الله بن عباس مؤخراً بأن يترك النساء والأطفال في مكة ويرحل - على الأقل - بعد الحج الذى لم يبق عليه إلا أياماً قلائل.

وخرج الحسين في الأسبوع الأول من شهر ذى

الحجة (٦٠هـ) متجهاً إلى الكوفة، وقد صادفه فى الطريق عبد الله بن مطيع وقال له : « أنشدك الله أن تعود إلى مكة، فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أمية ليقتلنَّك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك وحرمة قريش وحرمة العرب». إلا إن الحسين أبى إلا أن يمضى دون أن تحول هذه النصيحة بينه وبين ذلك. وكان يزيد بن معاوية وواليه على العراق عبيد الله بن زياد على علم بكل ماحدث، ووزع سته آلاف مقاتل على مختلف المواقع وذلك للحيلولة بين الحسين ودخوله الكوفة، ولوضع سد بينه وبينها، وكان برفقة الحسين عدة مئات من الناس لكنهم بدأوا يتناثرون هنا وهناك بعد أن شعروا بنشاط جيش يزيد، ولم يبق مع الحسين عند وصوله الى ساحة كربلاء سوى اثنين وسبعين نفراً كلهم من قبيلته وعشيرته. وأخيراً أحسّ الحسين بخطورة الموقف، وقد خيّب آماله فى النجاح، كل من مقتل مسلم بن عقيل، وعدم وفاء الكوفيين، ونشاطات قوات يزيد المسلحة. وقد أيقن الحسين أن دخول الصراع فى مثل هذا الموقف يعنى

الموت. ورغم أن الحسين كان شجاعاً ومقداماً وشريفاً لا يرهب الموت ولا يثنيه الخوف إلا أن شفقته على مرافقيه وخاصة النساء والأطفال دفعته فى النهاية إلى مصالحة يزيد ـ كما يروى التاريخ ـ وقد أدلى أمام والى يزيد عبيد الله بن زياد باقتراحات ثلاث :

١ – أن أعود إلى مكة واتفرغ لعبادة الله صامتاً.

٢ – أن تسيرونى إلى ثغر من ثغور المسلمين حيث أموت شهيداً فى القتال مع الكفار.

٣ – أن أبايع يزيد « إما أن أضع يدى فى يد يزيد » .

[الطبرى مجلد ٤ صفحة ٣١٣]

وقد ساد الفرح والسرور صفوف جيش يزيد بعد أن غير الحسين وجهة نظره، ورغم أن كلاً من الفريقين كان متأهبا لمواجهة الطرف الآخر إلا أن حفيد النبى ﷺ كان موضع احترام الجميع حتى أن الفريقين كانا يصليان معاً، وأكثر ماكان يؤمهم الحسين، ولمّا علم عبيد الله بن زياد بما عزم عليه الحسين فرح فرحاً شديداً لأن القضية ستنتهى دون الخوض فى صراع أو قتال، ويبايع

الحسين ليزيد، ولكن ما لبث أن حضر مستشاره شمرذى الجوشن، وكان رجلا داهية، وأشار عليه بأنه لن يجد فرصة أخرى مناسبة ـ كهذه الفرصة ـ لاستئصال أمر الحسين، وأقنعه بذلك، فأمرعبيد الله بن زياد مقاتليه بقفل جميع منافذ العودة أمام الحبسين فحيثما اتجه الحسين للعودة وقف جيش من جيوش عبيد الله فى طريقه.

وفى اليوم العاشر من محرم (٦١ هـ) اشتعلت نار الحرب، وكان البادىء بها جماعة يزيد، أما قافلة الحسين فقد قاومت بمنتهى الشجاعة والاقدام حتى لقى الجميع مصرعهم عدا النساء والأطفال والحسين نفسه، ويعود السبب فى ذلك أن جنود يزيد كانوا يحذرون من شن الهجوم على شخصية الحسين لإعطائه الفرصة، وأخيراً أقبل عليه شمّرذى الجوشن الذى شجع عبيد اللّه بن زياد على قتاله، وشن هجوما سيفا مع رفاقه على شخصية الحسين وأرداه شهيداً، ونضيف هنا أن شمّرذى الجوشن كان زوج عمة الحسين، وأن أول من رمى بسهم فى اتجاه قافلة الحسين وهو عمر بن سعد كان خاله.

إن ما أورده الطبرى وغيره من كتَّاب التاريخ تصويراً لقضية الحسين يختلف إلى حد كبير عما يلقيه الشعراء والواعظون والكتَّاب بكلمات مثيره وجذّابة، فالحقيقة أن هذا العمل السياسى الذى أقدم عليه الحسين لم يكن إلا من اجتهاده الشخصى، كما أن الصحابة المتواجدين يومئذ قد أعربوا عن عدم موافقتهم على مثل هذا الإجتهاد، وثبت إلحاح كبراء مكة والمدينة على عدم إقبالهم على تنفيذ خطته هذه، حتى أقاربه لم يتفقوا معه على ذلك، ولكن كل تلك المحاولات لم تنجح فى الحيلولة بينه وبين ما يصبو إليه، لكنه فور شعوره بخطورة الموقف وبشاعته نزل على ذلك الرأى الذى سبق أن وصل إليه أخوه الكبير بذكائه الحاد وقوة تنبوئه قبل عشرين عاماً، ولو كان يزيد بن معاوية ـ المقيم فى عاصمته دمشق ـ حاضراً مع جيشه فى ساحة كربلاء وفاوض الحسين وجهاً لوجه لقبل باقتراح الحسين الأخير بدون أدنى شك، لأن عداوة يزيد للحسين تتركز على اعتباره معارضه السياسى، أما بعد خضوع الحسين تحت خلافته فإن عليه واجب تكريم حفيد النبى ﷺ

والسماح له بالرجوع إلى وطنه بكل عزة واحترام، لكنّ يزيد لم يكن على علم بما نزل عليه الحسين من قبول الصلح إلا بعد أن فصل رأسه عن جسده.

قضية المعارض السياسى :

لقد ألقى الحسين خطابا فى منتهى البلاغة والفصاحة وذلك فى العاشر من المحرم (٦١ هـ) آخر أيام قتاله، وكان مما قاله يومئذ «لوكان حمار عيسى حيا لعبده المسيحيون حتى يوم القيامة، أى نوع من المسلمين أنتم وأى نوع من الأمم... تريدون قتل حفيد رسولكم؟!».

الحقيقة أنه لو كانت القضية قضية حمار الرسول لعبده المسلمون أيضا، وهم علىْ استعداد كامل لافتداء حفيده بالدم والروح، ولكن القضية تكمن فى أن حفيد الرسول قد وقف أمام يزيد كمعارض سياسى ولا أحد ـ سواء أكان مسلما أم مسيحيا ـ يغفر لمعارضه السياسى.

إن يزيد الذى عين أميراً ظالما وهو عبيد الله بن زياد لضرب الحسين واستئصاله (٦١ هـ) هو نفسه الذى سيّر مسلم بن عقبة لشن هجوم على المدينة، ووجه إليه أمرا صارما بعدم التعرض لنجل الحسين (على بن الحسين بن على) (٣٨ - ٩٥ هـ) والاهتمام به. ولعل السبب فى ذلك يعود إلى أن على بن الحسين (زين العابدين) كان قد أقام فى زاوية المدينة معتزلا السياسة ومتخليا عنها. وأعرب أهل المدينة عن رغبتهم فى بيعته لكنه رفض ذلك فى صراحة وقال: « إن أبى وجدى ذهبا ضحية قضية الخلافة فهل أخاطر بنفس القضية وأقتل نفسى ؟!».

وعقب وقف القتال فى كربلاء عامل يزيد الباقين من أهل بيت الحسين بتكريم واحترام تامّين، وأعادهم إلى المدينة بعد أن زودهم بمختلف التسهيلات. وهكذا فإن يزيد قد خاض حروبه من أجل إخضاع الحسين وعبد الله بن الزبير بينما لم يتعرض لعبد الله بن عمر، بل كتب إلى عامله فى المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان بأنه لو لم يبايع عبد الله بن عمر فليدعه وشأنه، والسبب هو

أن عبد الله بن عمر كان رجلا متعبدا وزاهدا وليس له أطماع سياسية تحركه. ولقد عبرأبو يزيد معاوية بن أبى سفيان عن أصل منهجه السياسى فى مثل هذه العبارة : «إنى لا أحول بين الناس وملكهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا»

(ابن الأثير مجلد ٤ صفحة ٥)

وهذا المنهج الذى ورثه يزيد جعل يطبقه فى سياسته إلى حد كبير... فقد كان رد فعل المدينة أن اهلها وقفوا ضد حكومة يزيد وتمردوا عليها وأخذوا يقومون بأعمال تخريبية ضد أولئك الذين كانوا من قبيلة يزيد (بنو أمية) البالغ عددهم ألف شخص تقريبا من سكان المدينة، وكانوا يمارسون الضغط عليهم ويضايقونهم حتى أرسل بنو أمية رسولا إلى يزيد يبلغه بما يجرى، ولما وصل الرسول إلى دمشق أطلع يزيد عن الوضع الأليم عندئذ أنشد يزيد قائلا :

لقد بدّلوا الحلم الذى فى سجيتى ∴ فبدلت قومى غلظة بليان

فهذا مؤشر يبدو من خلاله موقف يزيد من الحسين لو لم يصبح معارضه السياسى...

موقف الحسن :

إن الموقف الذى واجهه الحسين فى حياته مع يزيد، هو نفس الموقف الذى واجهه أخوه الحسن فى حياته مع معاوية (٣ - ٥٠هـ) لكن الحسن قد اتخذ رد فعل مناقضا تماما لما اتخذه الحسين فى حياته. والجديد بالذكر أن هناك روايات عدة تتعلق بالحسن والحسين فى باب المناقب. ونلاحظ أن هناك فرقا بين الأخوين، إذ الأحاديث الصحيحة التى وردت حول الحسين يشير أكثرها إلى حب النبى ﷺ له، على أن ذلك هو أمر طبيعى لانه حفيده.

يروى أسامة بن زيد أنه سمع النبى ﷺ يقول : « هذان ابناى وابنا ابنتى، اللهم إنى أحبهما فأحبهما » (رواه الترمذى). ومن جهة أخرى فإن الأحاديث المروية حول الحسن لم تكن قوية

فى سندها فحسب بل كانت علامة على الحب فوق الطبيعى أيضا، ويروى أنس بن مالك : « لم يكن أحد أشبه بالنبى ﷺ من الحسن بن على » رواه البخارى. وفضلا عن هذا التشابه فى الطبع والخلقه، فإن الأحاديث الصحيحة تخبرنا عن نبوءة النبى ﷺ فيما يتعلق بالانجاز التاريخى الذى قام به الحسن بينما لا تخبرنا عن أى نشاط تاريخى قام به الحسين. عن أبى بكرة، قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن ابن على إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول : إن ابنى هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (رواه البخارى).

وقد ثبت صدق ما تنبأ به النبى ﷺ فى حياة الحسن، إذ أن بيعته تمت فى الوقت الذي لم تتوقف فيه رحى الحرب الأهلية فى أوساط المسلمين، وقف بعضهم تحت رايةبنى أمية وتمسك بها، وبعضهم انضوى تحت راية بنى هاشم وتمسك بها، ولم يكن فى استطاعة أى من الفريقين التغلب على الآخر، كما أن أحدا منهما لم يكن مستعدا للتراجع عن موقفه الصارم. وقد قطع الحسن العهد على

الناس إبان مبايعته على: « إننى لو خضت حربا ضد أحد فأنتم مطالبون بخوضها، وإذا صالحت أحدا فأنتم مطالبون بالصلح معه». وحين استشهد الإمام « على » وأخذت البيعة لنجله الحسن، كان معاوية قائد بنى أمية قد رفض مبايعته، إذ كان ذلك بمثابة تحد جديد بالنسبة له، فاتجه من عاصمته دمشق رفقة ستة آلاف مقاتل قاصداً الكوفة مقام الحسن، وفى المقابل خرج الحسن من الكوفة بقوة عسكرية مماثلة، وعبر أحد شهود عيان حين رأى جيش الحسن بأنه« كتائب أمثال الجبال » أى جمع غفير من الجيش، وهم هؤلاء الذين سبق أن بايعوا أباه عليا - رضى الله عنه - وقد قطعوا العهد على الموت.

نزلت جيوش الطرفين قرب المدائن، وأرسل معاوية بن أبى سفيان إلى الحسن معربا له عن رأيه فى أن الصلح أفضل من الحرب « والأفضل هو الاعتراف بخلافتى والبيعة لى » ففكر الحسن فى الأمر وأمعن النظر فيه حتى رضى باقتراح معاوية ونزل عليه، ثم بايعه بعد أن تنازل له عن كرسى الخلافة الذى كان عليه لمدة ستة

أشهر (٤١ هـ) وبدلك سلم مقاليد السلطة لمعاوية. وكان هذا بالنسبة لمؤيدى الحسن المتحمسين « عاراً» لا يطيقونه، وأخذوا يقومون بأعمال الشغب والضوضاء، حتى تجرأوا على تلقيب الحسن بـ « عار المسلمين » و«مذل المؤمنين »، بل واتهموه بالكفر، ومزقوا ثيابه، وأقدموا على شن هجوم عليه بسيوفهم، لكنه - رغم ذلك كله - لم يقبل التنازل عن موقفه الصارم إزاء عدم الخوض فى المناورات السياسية القائلة، وقال : « لو كانت الخلافة حق معاوية فهو قد حصل عليها، وان كانت حقى فقد أعطيتها إياه » . وهكذا تمت معاهدة الصلح، وقد خصص معاوية مبلغ مائة ألف درهم كمرتب سنوى، يتقاضاه الحسن. ومن النائج التى ترتبت على تراجع رجل واحد، هو أن الصراع الذى كان بين المسلمين قد تحول إلى ترابط وثيق [١].

وكانت سنة (٤١ هـ) على وشك أن تصبح هى الأخرى، عنواناً لاستنزاف الدم الخارج من جرح الصراع الذى كان بين

(١) الحافظ الذهبي / العبر - المجلد الأول - صفحة ٤٨ .

المسلمين بعد معركة صفين والجمل، لكنها بعد هذا العمل الذى قام به الحسن أصبحت تحمل عنوانَ « عام الجماعة » بدلا من « عام النزاع » ، وأصبح هذا العام « عام الوحدة » ، كما أن القوى المسلمة التى كانت على وشك الاستنزاف فى الحروب الأهلية قد تم توظيفها لنشر الاسلام وتوسيع رقعته. إن هذا التراجع كان فى منتهى الشجاعة، وفئة قليلة جداً تلك التى تكون مستعدة للأقدام على مثل هذا العمل الشجاع.

إثر وفاة النبى ﷺ (١١ هـ) ، استمرت الفتوحات الإسلامية متواصلة ستين عاماً متتالياً، كانت الأنباء تتردد من حين إلى حين بفتح جديد حتى أواخر عهد الخليفة الثالث، حيث نشب الصراع بين المسلمين مما أدى إلى تجميد نشاط الفتوحات مدة عشر سنوات، والذى يعود إليه فضل فتح ذلك الباب المغلق على مدى تلك السنوات العشر هو الحسن بن على دون سواه. وهذه حقيقة تاريخية. ففى سنة (٤١ هـ) تخلى الحسن عن الخلافة، وهذا يمثل فى الظاهر - تراجعاً عن ساحة العمل - لكنه كان فى جوهره فتح

الطريق إلى ميدان العمل بأرقى أسلوب وأحسنه، إنه كان توجيهاً للقوى المسلمة - بعد فكها من الصراع - لبذل الجهد فى ميدان العمل. لقد فتح هذا التراجع أبواب امكانيات جديدة للفوز والنجاح أمام الإسلام فى تاريخه، ولو أصرّ الحسن على الخلافة فلا نستبعد أن تكون نهاية تاريخ الإسلام منذ قرنه الأول، ولاستمر المسلمون يبددون قوتهم فى نزاعهم الداخلى، لتكون الفرصة مواتية لكسرى وقيصر والمنافقين لاستئصال الإسلام فلا تقوم له قائمة أبداً. إننا إذا أردنا ترشيح بطل للتاريخ الإسلامى من بين الحسنين لكان هو الحسن فهو أجدر به .

توجيهات النبى وإرشاداته :

إن ما فعله الحسن لم يكن أمراً عفوياً أو مصادفة بل هو مبنى على تعاليم الشريعة الواضحة،فقد ألهم الله نبيه بوقوع اختلافات سياسية فى أوساط المسلمين بعده. لذلك أدلى النبى ﷺ

بتوجيهات واضحة صريحة تمنع من الدخول فى حروب مع المسلمين باسم الإصالح، كما تنص على الاهتمام بأداء المسئوليات الشخصية. وكثيراً ما ورد هذا النوع من الروايات فى كتب الأحاديث تحت عنوان (كتاب الفتن) .

عن حذيفة بن اليمان قال : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشرّ فجاءنا اللَّه بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شرّ قال : نعم، فقلت هل بعد ذلك الشر من خير، قال: نعم، وفيه دخن، قلت : وما دخنه، قال : قوم يستنون بغير سنتى ويهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر، فقلت : هل بعد ذلك الخير من شرّ، قال : نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت : يا رسول لله صفهم لنا، قال : نعم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت : يارسول الله فما ترى إن أدركنى ذلك، قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، فقلت فان لم تكن لهم جماعة ولا إمام قال : فاعتزل تلك الفرق كلّها ولو أن

تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك ».

وفى رواية « يكون بعدى أئمة لايهتدون بهداى ولا يستنون بسنتى - وسيقوم فيهم رجال، قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس - قال حذيفة قلت : كيف أصنع يا رسول اللّه إن أدركت ذلك - قال تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع وأطع » رواه مسلم.

وورد فى رواية أخرى هذه الألفاظ أيضاً « وإلا فمت و أنت عاض على جزل شجرة » .

وروى عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : «ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده » رواه أبو داود.

يروى أبو موسى أن النبى ﷺ حذر الناس من الفتنة، فسألوه (فما تأمرنا ؟) فأجابهم قائلاً : « كسروا فيها قسيكم وقطعوا فيها أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة - والزموا فيها أجواف بيوتكم - فان دخل على أحد منكم فليكن كخير ابنى آدم » رواه أبو داود.

هذه هى الـتوجيهات التـى طبقها الخـليفة الثالث عثمان بن عفان فـى حيـاته، إذ تم تنصيبه للخلافة فـى شـهر المحرم (٢٤ هـ) وفى سنة (٣٥هـ) أردته فتن المسلمين شـهيداً وكان يبلغ من العمر (٨٢) سنه وفى مـنزله جماعة من مسـلمى المدينه المخلصـين كلهم مستعدون لـبذل كل رخيـض وغال لرد أى اعـتداء أو هجـوم يمس شخص الخليفـة، لكنه أبى قبول ذلك واستحى علـى عدم مهاجمة إخوانهم المسلمين، وانشغل بتلاوة القرآن جالساً وسط بيته، إلى أن اقتحموا عليه بيته برماحهم وسيوفهم وأردوه قتيلاً.

لقد أقبل الخلـيفة على هذا القتل بصمت، ولـم يكن هذا عملاً عفويـاً بل كان عن قصـد وإرادة، فهو تطبيـق عملى لحكـم شرعى وفقـاً لتعـاليم الـشريعـة التى تـنص علـى أنه لا يجـوز لمؤمن الـبدء بالهجوم إطلاقاً. إن المسلم ينهج سبيل الدعوة والنصيحة فى ساحة عمـله لا سـبيـل القـتال، أمّا إذا حـدث الهـجوم مـن الآخريـن فلـه صورتان : إمّا أن يـكون البادئون بـالهجوم جمـاعة الكافريـن فهذا يتطـلب الدفاع تحت شـروط خاصة « وقاتلوا فى سبيل الـلّه الذين

يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (البقرة - ١٩٠)، وإما أن يكون البادئون جماعة المسلمين فالحكم فى هذا الوضع، التوقف عن شن الهجوم على الأخ الذى تربطك به رابطة الدين، ولو كان ذلك عن طريق الدفاع، قال تعالى : «لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين» (المائدة - ٢٨) [١] .

وكتطبيق عملى لهذا الحكم الثانى لم يخض الخليفة الثالث قتالاً ضد مهاجميه من المسلمين، وأقبل على الشهادة بصمت وقد أصبح بذلك خير ابنى آدم. ومما يدعونا إلى الدهشه أن عثمان - رضى الله عنه - والذى قدّم مثالا عاليا للتطبيق العملى لأصول الشريعة انشغل المسلمون بأخذ الثأر له والانتقام لدمه بعد موته، وخاضوا فى سبيل ذلك حروباً وقتالاً فيما بينهم استمر خمس سنوات (٣٥ - ٤٠) ، وذبح مائة ألف من المسلمين بسيوف

---

(١) يجوز للمسلم أن يجابه مسلماً آخر دفاعاً عن ممتلكاته الشخصية شريطة ألا يؤدي ذلك إلى فوضى اجتماعية عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ : «من قتل دون ماله فهو شهيد» متفق عليه.

المسلمين أنفسهم باسم التأثر لعثمان، ورغم هذا القتال الدامى فإن قضية قاتلى عثمان بقيت ليحكم فيها الله.

لقد صرح النبى ﷺ بهذه الإرشادات والتوجيهات بناء على احتمال أن تظهر من بعده اختلافات سياسية بين المسلمين ونزاعات دينية متطرفة تعمل على حث الناس واستثارتهم للقيام بالتظاهر والتمرد بدعوى إصلاح السياسة. لذا منع النبى ﷺ الناس منعاً باتاً عن طريق التنبوء بظهور مثل هذه الحركة. أما الحكام فقد أمر النبى ﷺ بأن نوجه إليهم النصيحة بدلا من الدخول فى الصراع معهم إلا إذا فقدت النصيحة تأثيرها ولم ينصلح الحكام، عندئذ علينا أن نلتزم الصمت ونكتفى بالدعاء لهم. ولعل السبب فى هذا التأكيد الصارم يعود إلى أن مواجهة الحكومة القائمة لا يزيد الأمر إلا تفاقماً والفساد إلا شدة. عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : استنصت الناس، ثم قال : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض. (متفق عليه).

ومن نتائج تلك التعليمات النبوية، أننا نجد أصحاب النبى

ﷺ الدين كانوا على قيد الحياة عند حدوث موقعة صفين (٣٦هـ) كانوا يعدون بالآلف ، ورغم ذلك فقد كان المشاركون الحقيقيون في تلك الحرب الأهلية ثلاثين صحابياً وبمشقة [١] . إن كتب الحديث تحوى ـتحت باب الفتن ـ روايات عديدة كلها تثبت هذا المنهج بوضوح لا يتطرق إليه الشك. وبناءً على هذه التوجيهات النبوية الواضحة، واستناداً عليها، صيغت المسألة الفقهية التي تنص على أنه لا يجوز التمرد على السلطان الغالب لما فيه من إثارة الفساد وإراقة الدماء بين أفراد المجتمع. وفي هذا الصدد نورد بعض الروايات الأخرى « المتعلقة بالموضوع نفسه : عن عوف بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم ، قال : قلنا يارسول الله أفلا ننابذهم، قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة. (رواه مسلم).

---

(١) منهاج السنة ـ ابن تيمية / مجلد ٣ ـ صفحة ٨٦.

عن هنيدة وائل بن حجر رضى الله عنه قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا، فأعرض عنه - ثم سأله فقال رسول الله ﷺ ، اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حمّلوا وعليكم ما حملتم. (رواه مسلم).

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج من السّلطان شبراً مات ميتة جاهلية . (متفق عليه) [1] .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنها ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك، قال : تؤدون الحق الذى عليكم وتسألون الله الذى لكم. (متفق عليه) .

---

(١) من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية - ومن شذ شذ فى النار. إلى غير ذلك من الروايات المتعلقة بالشذوذ السياسى، والتى تعنى أنه يتعين على الناس الخضوع تحت النظام السياسى القائم، ولا يجوز الانفصال السياسى لأنه - وإن كان بدافع الإصلاح - يأتى بخراب وفساد أعظم، ويسبب ضياع النسل والحرث.

عن أبى سعيد، قال : قال رسول الله ﷺ : يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرّ بدينه من الفتن. (رواه البخارى) .

والحقيقة أن المراد من ارشاد النبى ﷺ بعدم الخوض فى محاربة الحكام « ما أقاموا الصلاة فيكم » ألا نحاربهم أبداً، لانه من المستبعد أن نجد حاكماً مسلماً يمنع شعبه من إقامة الصلاة، وإذا رضى الناس عنه حيث أقام الصلاة فيهم، فهو لن يقوم بتدمير المساجد ومنع الناس من الركوع والسجود. إن الحكام المسلمين الذين نعدهم فى عداد الظالمين والمستبدين إنما صاروا كذلك حين تحدى الناس سلطتهم وسيطرتهم، وهذا النوع من الظلم يتسع نطاقه إلى حد أنه يستغرب وجود أى مسئول عن أمر - كائنا من كان - ليس فيه هذا النوع من الظلم، سواء أكان فى سلك سياسى أو غير سياسى .

والجدير بالذكر - هنا - أنه ليس الهدف من هذه التوجيهات النبوية أن يظل الشعب أبكم أمام الحكام الظالمين بل إنها إضاءة

للطريق نحو عمل جاد بعيد الغور، كما أنها تربية للعقلية الإيجابية فى أفراد الأمة بدلا من العقلية السلبية، وهى توجيه لمجهودات الشعب إلى عمل بناء وخلاق بدلا من أعمال التخريب والدمار، وهى إشارة إلى حقيقة عظيمة ثابتة، ألا وهى أن مزاولة العمل فى ميادينه عن طريق غير مباشر أكثر نجاحاً ونتاجاً من مزاولته عن طريق مباشر، ورغم أن ذلك يخلو من روعة ظاهرية إلا أنه فعّال ومؤثر وقادر فى نهاية الأمر على حرمان الخصم من الأرضية التى يقف عليها.

إن الاستمرار فى الدعاء الذى ينشىء جوّ الحب وإرادة الخير للآخرين، والاهتمام بأداء المسئوليات الشخصية بدلا من إيجاد حركة للصراع ضد الآخرين، والرضى بالخسارة الشخصية فى سبيل حقوق الآخرين، والانشغال بتعليم الناس فى صمت لإيقاظ فطرتهم، وبناء الشخصية الذاتية وترسيخ جذورها بدلا من الدخول فى صراع مع السلطة، والاستمرار فى بذل الجهود البناءة فى ظروف مواتية، كل هذه الأعمال تنطوى على قوة تسخيرية لدرجة

أنه لو تبنتها جماعة ما فى الطريق الصحيح وبإخلاص فلا شيء يستطيع أن يحول بينها وبين الوصول إلى هدفها بنجاح .

لقد أثبتت تجربة القرن الأول من الهجرة ـ بكل تأكيد ـ بأن الصدام مع النظام السياسى المسيطر مهما أخلصت له النية، يزيد الفتنة اشتعالاً، كما يخلق مشاكل جديدة، تجعل القضية أكثر تعقيداً. والحركة التى قامت لإصلاح السياسة العثمانية تسببت فى بعث قتال عنصرى قبلى قديم ـ فى أبشع صورة ـ بين فرعى قبيلة قريش ، بنى أمية وبنى هاشم، كما فتحت أرضية مواتية لمثل عبد الله بن سبأ المسلم اليهودى الجديد، استغلها لابتداع عقيدة «الموصى » الجديدة، وادخال مسألة « استحقاق الخلافة» ـ وهى قضية سياسية ـ ضمن المسائل العقائدية، ونجم عنها كذلك انقسام المسلمين إلى فريقين متناحرين بشكل متواصل هما الشيعة وأهل السنة، ووجدت العصبية الدفينة فرصتها لاسترجاع حيويتها والنهوض ضد الآخرين تحت ستار شعارات نظرية متناقضة. فالعرب المحتقرين للعجم تجمعوا تحت لواء الأمير معاوية، أما العجم

المستنكرون لسلطة العرب فقد تطوعوا للقتال مع جيش علىّ. إن حركة الإصلاح السياسى قد أفضت إلى فوضى سياسية فحسب، مما أدى إلى نشر الاضطرابات فى أنحاء الأمصار الإسلامية، والتي أسفرت عن مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضى اللّه عنه ـ ولم تكن القضية لتنتهى إلى هذا الحدّ أولتقتصرعلى مقتل عثمان، بل بدأت سلسلة لا متناهية من أعمال التناحر التى تجاوزت الوقفة العارضة أثناء خلافة معاوية لتواصل مسيرتها مئات السنين وأهلكت مئات الآلاف من الأرواح البرئية بأقصى صورة وأبشعها .. ورغم ذلك كله فإن المشكلة الحقيقية وهى إصلاح فساد الخلافة أو القصاص لدم عثمان لا تزال قائمة تنتظر المكان الذى تحل فيه سائرالقضايا(أى عند اللّه) .

والجدير بالذكر- أيضا ـ أن الحرب التى تنشب للنيل من الحكومة لا تنتهى إلى نتيجة حاسمة، فلا تكلل بالنجاح ولا تمنى بالفشل، وقد تتوقف الحرب بين فريق (أ) وفريق (ب) مثلا. لكن سرعان ما يظهر الانشقاق فى صفوف الفريق الغالب لينقسم إلى

فريقين. لقد نشب القتال بين بنى أمية وبنى هاشم سنة (٣٥هـ) للحصول على سلطة الخلافة، واستمر ذلك ـ بشكل أو بآخر ـ مائة عام تقريباً، ظل خلالها بنو أمية على مقعد الخلافة. وفى سنة (١٣٣هـ) استطاع بنو هاشم (بنوعباس) أن ينجحوا فى استئصال سيطرة بنى أمية بمساندة الايرانيين، ثم ما لبث أن انشق بنو هاشم وانقسموا إلى: عباسيين وعلويين، وصاروا يتناحرون فيما بينهم. إن محمد بن عبد اللّٰه بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب ، المعروف بـ« محمد المهدى النفس الزكية » (١٤٥هـ) كان معارضاً سياسياً للخليفة العباسى أبو جعفر المنصور بن محمد بن على بن عبد اللّٰه بن العباس بن عبد المطلب، وقام ـ مع مناصرين بحركة إصلاحية ضد نظام أبى جعفر المنصور(١٣٢ ـ ١٥٨ هـ) بدعوى « إصلاح النظام » وكان النجاح لصالح المنصور فى الصراع، إذ استطاع أن يقمع العلويين وكلاهما ينتميان إلى قبيلة واحدة هى «بنو هاشم» أحدهما كان حفيداً لأبى طالب بن عبد المطلب والآخر كان

حفيداً للعباس بن عبد المطلب . عندما كانت القضية قضية نزع السلطة من سيطرة بنى أمية كان كلاهما تحت مظلة سياسية موحدة، أما حين تغيرت الحكومة أصبح كل منهما رقيباً على الأخر، يراقب هذا تحركات ذاك، واستمرت هذه الرقابة بينهما حتى حطم الواحد منهما الآخر.

وبعد استشهاد عثمان، نهضت عائشة أم المؤمنين تطالب بالقصاص من الذين شاركوا فى اغتيال عثمان واشترك معها الزبير بن العوام وطلحة بن الزبير وآخرون كثيرون. فأسفرت هذه الحركة عن تقسيم المسلمين إلى طائفتين متحاربتين، اجتمع ثلاثون ألف مسلم تحت لواء عائشة، واصطحب عليّ عشرين ألف مسلم، والتقى الفريقان قرب البصرة ودار بينهما قتال، وهو ما اشتهر فى التاريخ باسم موقعة الجمل (٣٦ هـ) لقى فيه عشرة آلاف مسلم مصرعهم مذبوحين بسيوف إخوانهم. وكان طلحة والزبير قد سقطا قتيلين فى طريق عودتهما من القتال أما طلحة فقد مات متأثراً بالجراح التى أصابته بينما اغتيل الزبير عند وادى السباع وهو يصلى .

وبعد ذلك بدأت مرحلة ثانية من الصراع،تزعم لواء الحركة التى كانت على رأسها عائشة ـ معاوية بن أبى سفيان وكان والياً على الشام. فعلى بن أبى طالب كان يطالب بحق مبايعته على الخلافة بينما كان مطلب معاوية القصاص لدم عثمان، فحدث للمرة الثانية فى موقعة (صفين) بالشام ما حدث من القتال فى أبشع صورة وأشدها (٣٧ هـ) راح ضحيته سبعون ألف مسلم تقريباً بيد إخوانهم المسلمين ورغم تلك المجزرة البشعة فإن القضية لم تحل بعد، حتى بعد نزول الطرفين على خطة التحكيم (دومة الجندل). إن العمل الذى قام به عمرو بن العاص فى هذا الموقف قد أضاف مزيداً من الأضرار التى تسببت فى قتل الأرواح فضلا عن انعدام روح الثقة بين أفراد المجتمع الإسلامى، وهذا الذى أسفر عن ظهور (فرقة الخوارج) التى خاضت الحرب ضد على بن أبى طالب فى موقعة النهروان (٣٧ هـ) والتى راح ضحيتها حوالى عشرة آلاف مسلم، مما زاد فى عدم الثقة فيما بينهم حتى أنهم تآمروا لإغتيال الأمير معاوية، وعمروبن العاص، وعلى بن أبى طالب على حد

سواء[1] إن نتائج الحرب الأهلية التى نشبت باسم« دم عثمان » واستمرت مدة خمس سنوات(٣٥-٤٠هـ) هى أن معاوية تمسك بالخلافة كما اخضع مزيداً من المناطق الاسلامية تحت سيطرته كاليمن والحجاز والشام وفلسطين ومصر، بينما اقتصرت حكومة عليّ على العراق وايران فقط، واستمد معاوية مزيداً من القوة من تنازل الحسن عن الخلافة بعد مقتل أبيه على بن أبى طالب (٤٠ هـ) وظل يحكم العالم الاسلامى عشرين عاماً بدون أية معارضة.

وبعد وفاة معاوية أثيرت - من جديد - قضية الخلافة، إذ نصَّب معاوية نجله يزيداً ولياً لعهده، وأخذ له البيعة ليكون خليفته

---

(١) ولا ينبغى أن نقيس التناقضات والاختلافات التى نشهدها بين الناس اليوم على اختلافات الصحابة، إذ الأخيرة كانت اختلافات رجال فى القمة، كانوا يحتفظون بسموهم رغم الاختلافات بينهم، يروى اسحاق بن راهويه : « سمع على يوم الجمل ويوم صفين رجلا يغلو فى القول، فقال لا تقولوا إلا خيراً، إنما هم قوم زعموا أنا بغينا عليهم، وزعمنا أنهم بغوا علينا فقاتلناهم » ابن تيمية/منهاج السنة - مجلد ٣ - صفحة ٦١.

كان الزبير بن العوام فى موقعة الجمل ضد على، وكان النجاح لصالح على. فحول الزبير وجه فرسه، وبينما هو فى الطريق لحقه رجل من البصرة وأسقطه قتيلا فى وادى السباع وهو فى الصلاة، ثم حضر إلى على رضى الله عنه، وطلب من الحارس الأذن قائلا : « استأذن لقاتل الزبير، وكان يظن بأن علياً سيفرح حين يسمع بخبر مقتل معارضه السياسى غير أن عليا قال لقاتل الزبير : أبشروا بالجحيم » .

من بعده، فسادت مشاعر الاستياء بين أفراد الشعب إزاء هذا الخطأ الذى ارتكبه معاوية حين حسم قضية انتخاب يزيد بدون مشورة. وفور تنصيب يزيد على عرش الخلافة برزت بعض الآراء القائلة بعدم أهلية يزيد للخلافة، خاصة أنه ثمة فى المجتمع الإسلامى - آنذاك - شخصيات بارزة ذات مقدرة وكفاءة وموضع احترام أيضا مثل عبد الله بن عمر وعبد اللّه بن عباس وعبد الله بن الزبير والحسين بن علىّ وعبد الرحمن بن أبى بكر، مما دفع مجموعة من الناس لرفض بيعة يزيد ، فبدأت ثورة جديدة كان لها قائدان متميزان هما : عبد اللّه بن الزبير، والحسين بن على. أما معظم الصحابة فقد كانوا على فريقين، فريق ظل صامتاً، وفريق انصرف إلى اقناع الناس بقبول خلافة يزيد حتى لا يسقط مزيد من الضحايا.

لقد كان عبد الله بن عباس فى مكة حين أعلن نبأ موت معاوية، فاجتمع الناس حوله ليسمعوا رد فعله، فكان مما قاله فى

ذلك الموقف : « وإن ابنه يزيد لمن صالحى أهله فالزموا مجالسكم واعطوا طاعتكم وبيعتكم [1] » .

وهكذا منع محمد بن الحنفية الناس من التمرد على يزيد بعد أن وصفه بخير. ويقول حميد بن عبد الرحمن بأنه حضر - عند ولاية يزيد - إلى الصحابى بشير رضى اللّٰه عنه حيث قال : «يقولون إنما يزيد ليس بخير أمة محمد ﷺ وأنا أقول ذلك ولكن لأن يجمع اللّٰه أمة محمد أحب إلى من ان تفترق » [2] .

إن وجهة النظر هذه كانت بناء على التوجيهات الصريحة التى أدلى بها النبى ﷺ يمنع فيها الخوض فى الصراع السياسى مع الحكام، والتى تنص على البحث عن ساحة عمل غير سياسية يوظف فيها الفرد رغباته الإصلاحية الملحة، إلا أن وجهة النظر البناءة والخلاقة الرامية إلى البناء والتعمير تجذب انتباه عدد ضئيل من الناس مقابل وجهة النظر السياسة، لذا اقتحم السواد الأعظم المعترك

---

(١) البلاذرى : انساب الأشراف . بروشلم ١٩٤٠ - القسم ٢ صفحة ٤ .

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام مجلد ٢ - صفحة ٦٨

السباسى (القتال) مما أسفر عن مقتل شخصيات ذات مقدرة عالية وصلاحية عظيمة مثل الحسين وعبد اللّٰه بن الزبير وآخرون ممن راحوا ضحيته مدبوحين بسيوف إخوانهم.

وعندما أبلغ يزيد بما قام به أهل المدينة من أعملل التمرد . مالبث أن قام بشن حمالات على الحرمين الشريفين ، ونسف جدران بيت اللّٰه (الكعبة الشريفة) .

وظلت المشكلة كما هى - رغم تلك التضحيات التى بذلت من أجلها - وبقى يزيد فى حكومته لم يستطع أن يقضى عليه إلا ملك الموت. ومما نجم عن تلك الحروب الأهلية التى نشبت فى القرن الأول الهجرى أن الصحابه الكبار الذين كانوا من الأبطال الشجعان، وكانوا يدفعون بعجلة الاسلام إلى الأمام كسيل متدفق مقتحم، قد انعزلوا عن الحياة الاجتماعية، فسعد بن أبى وقاص بطل فتح إيران ذهب بعيداً عن أضواء المدينة وتفرغ لرعى الإبل والغنم أما عبد اللّٰه بن عمر الذى كان باستطاعته أن يصبح عمر الثانى نظراً إلى مواهبه وقدراته، قد سئم هذه التناحرات، ولجأ إلى حياة

العزلة، وغيرهـم من الأبطال، على أن إعراضهم عن سـاحة القتال لم يتخذ منحى سلبياً بحتاً بل اتخذ وجـهة إيجابية ألا وهـى القيام بنشاطات التعليم والإرشاد، وأصبـح شغلهم الشاغل رواية الحديث وتبيين حـقيقة الشريـعة الإسلامية السمـحة للناس، واطلاعـهم على السيرة النبوية الشريفة.

هذا هو العصر الذى تكـونت فيه ذخيـرة علمية عـن الحديث والسـيرة والتاريـخ الإسلامى، فـالذين كانـوا يظهـرون شجعاتـهم ومقدرتهم فى مـيادين المعارك قد اكتشفوا عملا فـى حقل التدريس والتعليم خدمة للإسلام [1] .

(١) أما فيما يتعلق بمسئولية الحكام فقد وردت توجيهات صارمة من النبى ﷺ حيث قال : « ما من أحد من أمتى ولى من أمر المسلمين شيئاً لم يحفظهم بما حفظ به نفسه وأهله إلا لم يجد رائحة الجنة » المعجم الصغير/ الطبرانى هذا فيما يتعلق بالأمير (الحاكم) أما بالنسبة إلى المحكومين فواجبهم الخضوع تحت إمرة أميرهم ولو كان غير مستحسن فى رأيهم، كما يرشد النبى ﷺ إلى أن « الجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً وإن عمل الكبائر » (أبو داود) . والمراد به ألا تقعوا فى صدام مع نظام الحكم باسم إصلاحه بل وظفوا قوتكم لنشر الدين وتوسيع رقعة الإسلام خارج أطر سياسية.

ولاية عهد يزيد :

وظلت مسألة ترشيح معاوية لنجله يزيد كولى لعهده من أشد المسائل إثارة لـلخلاف والتنازع، ولا شك فى أن هذا الترشيح قد ألحق آلاماً وجروحاً خطيرة بالتاريخ الإسلامى، ولكن الذين احتاطوا فى بحثهم ونقبوا يرون أن معاوية كان مخلصاً كل الإخلاص فى ما فعل، تدفعه عاطفة دينية، على أن نجله هو أكثر أهلية وقدرة على تولى الخلافة فى الممالك الإسلامية. ويرى ابن خلدون : « أن الدافع الذى جعل معاوية يعين ابنه ولياً لعهده دون الأخرين، هو رعاية مصلحة الأمة فيما يتعلق بوحدتهم وترابطهم». وعندما اعترض عبد الله بن عمر على تعيين معاوية ليزيد، كانت إجابة معاوية : « إنى خفت أن أذر الرعية من بعدى كالغنم المطيرة ليس لها راع » [1] . وثمة روايات عديدة كهذه تنص على أن معاوية كان مخلصاً فى انتخابه ليزيد، حتى نقل عنه أنه وقف على منبر المسجد فى يوم جمعة وتضرع قائلاً: « اللهم إن كنت عهدت

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير / المجلد ٨ صفحة ٨٠.

ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه، وإن كنت إنما حملنى حب الوالد لولده وإنه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك » [1] . ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو أنه كيف أمكن لمعاوية أن يطمئن على تولية رجل مهام الخلافة على الممالك الاسلامية رغم أنه لم يكسب تأييد أصحاب الرسول ﷺ فى ذلك إلا المغيرة بن شعبة، أما الباقون والذين يعدّون بالآلاف يومذاك فمنهم من كان معارضاً لهذا الانتخاب، ومنهم من التزم الصمت خشية أن يؤدى ذلك إلى افتراق الأمة واختلافها .

ثم إن معاوية كان معروفاً بنظراته الثاقبة، بشكل متفوق فى عواقب الأمور، حتى وصفه عمر الفاروق بأنه انسان « يضحك فى الغضب » وانه كان يملك قدرة عالية ـ بشكل محير ـ للوصول إلى رأى مصيب.

فكيف أمكن لمثل هذا المدبر صاحب النظر الثاقب أن يوافق على صحة رأى لم يشهد التاريخ بعده على صحته، ولم يثبت صوابه.

---

(١) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام للذهبي / المجلد ٢ صفحة ٢٦٧.

والجدير بالملاحظة هنا ـ أيضا ـ أنه حين أوقف الحسن بن علي (سنة ٤١ هـ) سلسلة الصراعات الضارية بتخليه عن الخلافة بعد أن تنازل عليها، فان معاوية قد أقر أمام عبد الله بن عامر بإقرار ينص على أن الحسن سوف يتولى الخلافة عقب موته. ولم يكن ذلك تنفيذاً لاقتراح الحسن بل بدافع ذاتي من معاوية يقول ابن كثير «كان معاوية لما صالح الحسن عهد للحسن بالأمر من بعده فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية ورأى أنه لذلك أهلا [1] ». إن التضحية التي أقبل عليها الحسن ـ والتي لم يسبق لها مثيل ـ وذلك بتنازله عن الخلافة لمعاوية كانت يمكن أن تدفع معاوية إلى تعيين الحسين بن عليّ لولاية عهده حتى يتخلص من الوعد الذي عهد به للحسن، لكن تلك الخطة لم نجد لها مكاناً في تدبير معاوية، فهو قد أصرّ على تعيين نجله يزيد لمنصب الخلافة، وتسميته له بعد أخذ البيعة له من الناس.

---

(١) البداية والنهاية / مجلد ٨ صفحة ٨.

أما ما يتعلق بقضية عدم كفاءة يزيد فيكفى لإثباتها تلك الحادثة التى جرت فى عهده وذهب ضحيتها الحسين، فهى لم تكن مثالا للظلم والعمل البربرى فحسب بل إننا لوتفحصنا القضية - حسب وجهة النظر السياسية - لما وجدنا وراءها نظراً ثاقباً أو عقلاً مفكراً. إذ ينبغى ليزيد باعتباره رئيساً لمملكة كبيرة أن يكون على دراية بأن مقتل حفيد الرسول سيخلق ردّ فعل حتماً، فحدث بسبب ذلك ما حدث حتى أنه صار مضطراً لقمع ما نجم عن القضية فشن حملات على الحرمين مما أسفر عن مقتل قرابة ألفين من المسلمين، واضطر بعد مقتل الحسين لاستباحة دماء عامة المسلمين أيضاً.

والأمر الذى كان يجهله يزيد - أيضا - بشكل كلى هو أن إمكانية المصالحة مع رجل شريف يمكن أن يحصل عليها حتى آخر لحظة. والتاريخ خير شاهد على أن الحسين لم يلتفت إلى عدم موافقة أصدقائه وكبار الشخصيات فى مسئلة الخروج من مكة، ولم يكن يرضيه شىء حتى يدفع بيزيد إلى مصيره المحترم. ولكن

إثر وصوله إلى كربلاء، وحين أدرك بأن تلك الرسائل التى اعتمد عليها - مما دفعه للخروج من بيته بجميع أهله وعياله - كانت خداعاً محضاً من أهل الكوفة، عندئذ عزم الحسين على تسليم السياسة ليزيد ليظل مقتنعاً بحياة صامتة خالية من ضوضاء السياسة ويمكن القول - بعبارة أخرى - أن قضية يزيد والحسين قد وصلت فى أخر مراحلها إلى تلك النقطة التى وصلت إليها مسئلة معاوية والحسن، لكن معاوية كان يتمتع بخبرة واسعة، إذ بعث بورقة بيضاء - بعد أن وقّع وختم عليها - إلى الحسن ليكتب ما يريد من شروط الصلح، وهذا ما حدث للحسين فقد اقترح خطة للصلح بنفس الطراز إلا أن رجال يزيد هجموا عليه وأردوه قتيلا. ولم يكن يزيد حاضراً فى ساحة المعركة، وقد تأثرتأثراً شديداً بقتله، على أنه لا يستطيع أن يتخلص من هذه الجريمة البشعة لأن المأمورين يعملون وفقاً لذلك الجو الذى يهيئه أى مسئول حوله .

إن واقعة ولاية عهد يزيد تظهر لنا كم يقع الإنسان فى غلطة عظيمة وخطأ كبير رغم حسن نيته وإخلاصه، إن الإنسان - بوجه

عام ـ كثيراً ما تتسلط عليه انفعالاته (obsessed) ، فالإنسان الذى يتأثر مزاجه بالبيئة التى تحيط به أو ينشأ فيها يفكر تبعاً لها، فتكون فكرته فكرة متأثرة ومنفعلة(thinking coditition.) وينتهى إلى حكم خاطىء رغم إخلاصه، وهذا هو سبب اهتمام الإسلام الشديد بنظام الشورى فعن طريق الشورى تتضح نقطة الضعف فى راى الواحد عند الآخر، خاصة ما يتعلق بالشئون الإجتماعية التى تحتاج إلى شورى كاحتياج صلاة الجمعة إلى الجماعة.

لاشك أن معاوية كان مخلصا فى نيته، ولكن المشكلة هى أن رأيه هذا كان منبثقاً من فكر متأثر منفعل لم يحفل بتلك الحقائق التى كانت خارج نطاق ذهنه.

ولكن الأمر كان أسرع من ذلك : قيل إنه حين مرض معاوية مرض الموت نادى يزيد ملوحاً له ببعض النصائح، كان من بينها : «يابنىّ إنى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد» (١) .

---

(١) تاريخ الفخري / محمد علي طباطبا.

إن الانسان حين تسيطر عليه فكرة ما فهو كثيراً ما يتجاهل تلك الحقائق التى تجرى ضده أو تخالفه، وهذا ما حدث بالنسبة إلى معاوية، فهو قد نسى حقيقتين بالغتى الأهمية. احداهما : أن الاسلام قد جعل قضية انتخاب الخليفة خاضعة لنظام الشورى « فلم يكن معاوية على علم من أن تسمية نجله رئيساً أو ترشيحه لتولى الخلافة ستكون حادثة غير متمشية مع مزاج الإسلام وستخلق رد فعل حتماً. كما أن بنى هاشم المناهضين لبنى أمية سيحصلون على سند نظرى، ويستغلونه لنفخ الروح فى حركتهم المناهضة لسلطة بنى أمية - وهو ما حدث فعلا - فقد بدأ التمرد على يزيد - بصفته الخليفة - فلم يعش يوماً واحداً فى هدوء وسكون طوال مدة خلافته. والأمر الثانى الذى نسيه معاوية وهو ينصح ابنه على فراش الموت أن ابنه سوف لن يلبث حتى يلحق به، والتاريخ يشهد على أن يزيد قد حصل على فرصة الخلافة لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة بجهد ومشقة لم يلبث أن توفى بعدها، وجلس على كرسى الخلافة بعده، حفيد معاوية معاوية بن يزيد بن معاوية

(٣٩-٦٤ هـ) وانتهى أمره فى غضون ثلاثة أشهر فقط، فخرجت بذلك مهمة الخلافة فى أقل من أربع سنوات من أبناء وآحفاد معاوية، ودخلت تحت يد مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية (٦٥ - ٨٢ هـ) .

ولو تنبأ معاوية بهذا المستقبل لما أقدم على هذا العمل الذى مكن للمؤرخ أن يسجل بأن : « معاوية هو أول من أدخل فى الاسلام سنة كبسرى وقيصر» . وكذلك هؤلاء الذين سجلوا حوادث نزع السلطة فقد وجدوا سنداً كبيراً فى هذه الحادثة.

ولو التزم الإنسان طريق الصبر وجعل نشاطه الإصلاحى فى دائرة إمكانياته المتاحة، فسيرى كيف يجرى اللّه التدابير لإبراز تلك الحادثة فى طريق ناجح، بينما نحن نحاول - لعدم صبرنا - إيجادها عن طريق غير ناجح البتة .

الفهرس

الصفحة

الناشر
الرسالة للإعلان الدولي
٧ ش الشيخ محمد النادى ـ مدينة نصر ـ القاهرة
ت : ٢٦٢٣١٠٥